ملاحظة هامة:

رغم أن الوثيقة مفتوحة أمام التوظيف العلمي لا يجوز تعديلها أو نشرها بأي طريقة كانت وتحت أي ظرف من الظروف نظرا لطابعها المؤقت المستجيب بالدرجة الأولى للأغراض البداغوجية التعليمية التي ليست سوى محطة في أهداف أعم لها بالنسبة لصاحبها.

للمزيد من التوضيح الرجاء الاتصال بـ:
الأستاذ عرقوب كمال
أستاذ مساعد بجامعة باجي مختار-عنابة
كلية الآداب و العلوم الإنسانية و الاجتماعية
قسم علم الاجتماع
البريد الإلكتروني:
Kamelark920@gmail.com

تتمة للمحور الثاني

البطاقة الأولى : من فيزياء المادة إلى علم الإنسان

دور دفيد هيوم وفلسفة التنوير

سيشكل النموذج النيوتوني للعلم انطلاقا من النصف الثاني للقرن الثامن عشر مرجعية للعلماء المنشغلين بعلم الطبيعة وعلى حد تعبير بوسودروف أراد كل عالم أن يكون نيوتن المجال المعرفي الذي ينشط فيه.و علاوة على توسيع نطاقه إلى الظواهر الطبيعية المختلفة سنشهد تمديدا له إلى حقل الإنسان، الذي كانت إرهاصات دراسته العلمية قد طرحت مع ديكارت الذي دعا لدراسته كآلة غير أنها كانت دعوة مركزة على الجانب المادي للإنسان فكما رأينا يعتبر عالم الفكر مستقلا عن المادة كما قال ديكارت و له جوهره الخاص الذي لا يقبل خصائصها، غير أن التحول الذي سيقع سيكسر الثنائية الديكارتية بحيث سيجعل من الفكر موضوعا متاحا وشرعيا للدراسة التجريبية إن فكر الإنسان يمكن البحث فيه كأي موضوع آخر من مواضيع الطبيعة.

يعد دافيد هيوم(1711-1776) التعبير الأبرز عن هذا التوجه الجديد للعقل الأوروبي فلقد أراد و على غرار علماء الطبيعة الآخرين أن يكون نيوتن عالم الأفكار أو كما يفضل أن يطلق عليه الطبيعة الإنسانية. كان هيوم مهوسا بدراسة الفلسفة منذ صباه لدرجة أنه تخلى عن مستقبله في المحاماة والتجارة ولقد سعى باهتمام إلى أن يضاهي العلوم الطبيعية في الدقة والصرامة مستندا على الإستدلال التجريبي.

في هذا السياق يعكس كتابه بحث في الفهم الإنساني رغبته في تطبيق النموذج العلمي الجديد المنتصر في الفيزياء على موضوع الإنسان وفي هذا المؤلف سنجد نظريته في المعرفة و التي مختصرها كمايلي:

إن كل ما هو موجود في عقولنا ليس سوى انعكاس لتجاربنا الحسية السابقة وبهذا الشكل هو يرفض تصور ديكارت عن عالم الأفكار كما يرفض الميثافيزيقا الأولى التي أسسها . وفق هيوم كل ما هو في أذهاننا من تصورات ناجم عن الانطباعات الأولية و الانطباعات الثانوية:

1. الإنطباعات الأولية: هي كل الإدراكات الحسية المباشرة التي نتلقاها من العالم الخارجي عبر حواسنا (كسماع الموسيقى أو شم رائحة طعام)، علاوة على كل انفعالاتنا الداخلية (كالحب والبغض والكره).
2. الإنطباعات الثانوية: هي الأفكار أو هي نفسها الانطباعات الأولية بعد أن تخزن في الذاكرة.

ما يميز الانطباعات الأولية عن الأفكار المخزنة في الذاكرة أن الأولى مشحونة بالتجربة الحسية المباشرة في حين أن الثانية عبارة عن نسخة باهتة ضعيفة عنها، ومثال ذلك أن الألم الذي نشعر به لحظة جرح يدنا مختلف في قوته عن الألم الذي نتصوره بعد مرور أسبوع.

و على هذا الأساس يصل هيوم إلى استنتاج محوري وهام مفاده أنني لاأستطيع أن أفكر في شيء ما إلا إذا كان إنطباعا أوليا أو ثانويا، بصيغة أخرى لايمكن أن أفكر في شيء ما لم يسبق في التجربة الحسية.و لكن قد يعترض معترض ويقول إن في العقل أفكار لانجد لها أصلا في التجربة فكيف نفسر ذلك؟أليس ديكارت على حق. هكذا أفكار بالنسبة لهيوم ليست سوى عملية تركيب يقوم بها الخيال و لو تمعنا فيها جيدا نجدها غير مقطوعة تماما عن كل أصل حسي، فلو أخدنا مثال الحصان المجنح لقلنا أننا لا نجد شيئا مطابقا له في الواقع كفكرة كاملة، ولكن إن فككناها سنجدها مكونة من فكرتين الحصان والجناح وكلاهما لهما أصل حسي.

إن موقف هيوم و قد أسس بهذا الشكل سيشكل زلزالا للفكر لقد لاحظنا كما مر بنا أن العقل الأوروبي وبعد نجاح النموذج العلمي النيوتوني قد أفرغ الطبيعة المادية من كل محتوى ميثافيزيقي الآن ومع هيوم سيتم إفراغ العقل من كل محتوى ميثافيزيقي و ذلك لسبب بسيط لأن كل أفكارنا مصدرها التجارب الحسية السابقة ، و على هذا النحو فإن كل الأفكار الدينية والأساطير والدوغمائيات التي يحملها الفكر الأوروبي حول الكون والإنسان بالدرجة الأولى ليست سوى نتاج تركيب خيال الإنسان ، إنها أوهام طالما ليس لها ما يقابلها في التجربة الحسية.

إن التسونامي الذي أحدثه هيوم سوف يفتح باب النقد و الدراسة لكل مجالات الحياة الإجتماعية للمجتمعات الأوروبية، فلن يمضي إلا وقت قليل إلا وستمتد نزعته التجريبية الشكية إلى العديد من العقول و الفلاسفة خصوصا فلاسفة عصر التنوير في فرنسا.

سينطلق هؤلاء بناءا على مكتسبات الفيزياء النيوتونية و التجريبية الإنجليزية التي دشنها بيكون وعضدها جون لوك وقواها دفيد هيوم، في إعادة مراجعة نقدية لمختلف أوجه حياة ذلك العصر، كما ستعمل بناء على هذه المراجعة على بلورة أنظمة فلسفية لما ينبغي أن تكون عليه هذه الحياة **عندما دخل القرن الثامن عشر كان الفكر الغربي قد قطع أعظم الأشواط في التحرر من الفكر الديني، حتى أطلق على هذا العصر عصر التنوير . و لم يكن يقصد بالتنوير سوى إبعاد الوحي عن التوجيه . و أهم ميزة اختص بها عصر التنوير هي الإيمان بقدرة العقل على فهم الكون و استيعابه و**

إخضاعه لحاجات الإنسان. و على غرار النجاح الذي تم في مجال العلوم الطبيعية بدأ المفكرون يتجهون إلى الجانب الاجتماعي و الثقافي و يدرسون النظم السياسية و الدينية و الأخلاقية و يخضعوها للنقد العنيف من وجهة نظر العقل و حده و يطالبون بضرورة تغيير النظم التي تبدو للعقل غير منطقية و التي تتعارض مع طبيعة الإنسان و تقف عقبة في سبيل نموه.

في الحقيقة نحن لا نمتلك الوقت لاستعراض الأنظمة الفلسفية و الإيديولوجيات المختلفة التي شكلتها فلسفة عصر التنوير، ولذلك سنركز بشكل أساسي على طبيعة مساهمتها في وضع الأسس الأولى للتصور الوضعي لدراسة موضوع الإنسان و الذي سيتطور فيما بعد ويأخذ شكله المكتمل مع أوغيست كونت في القرن التاسع عشر .

البطاقة الثانية : تبلور النموذج الوضـــعي الثلاثي مونتسكيو سان سمون ، وأجيست كون

هناك العديد من الفلاسفة الذين ساهموا في وضع اللبنات الأولى للمنظور الوضعي أثناء القرن الثامن عشر وسنكتفي بذكر جان لوران دالمبير (1717-1783) هذا العالم الرياضي والفيزيائي البارز الذي كان من محرري الموسوعة*.

كان دالمبير صديقا حميما لهيوم ، متأثرا بتجريبية جون لوك الذي يعتبره مبدع الفلسفة العلمية كما كان نيوتن مبدع الفيزياء الحديثة، آمن دالمبير بفكرة توحيد العلوم نظرا لطبيعة الواحدة لكل الظواهر الطبيعية « **إن نظام الظواهر متجانس ومضطرد و أن هدف المعرفة العلمية هو إظهار وحدة هذا النظام وترابطه في ضوء المبادئ التي يمثلها**».

ولكن و كما يرى فردريك كولبستون يجب أن نفهم موقف دالمبير بشكل جيد إن دعوته إلى إظهار وحدة الطبيعة أو النظام المشتغل فيها وفق مبادئ لا تعني في حال من الأحوال تكوين ميتافيزيقا من المبادئ الأولى كما فعل ديكارت بل استخلاص القوانين التي تحكم الطبيعة انطلاقا من الملاحظة التجريبية، وبهذا فإن موقف دالمبير كان مبشرا بالمذهب الوضعي، فالعلم ليس بحاجة للميتافيزيقا التي تبحث عن العلل النهائية.

---

*تعد الموسوعة في فرنسا المستودع الأدبي و الفلسفي وا لعلمي الكبير المعبر بشكل جامع عن فلسفة عثر التنوير و نزعتها الجديدة في تناول قضايا الانسان و المجتمع .كانت الموسوعة نتاج جهد التنسيقي لدنيس ديدرو و دلمبير , نشر أو مجل لها سنة 1751 و الثاني في السنة التالية لتدخل الحكومة و توقف العمل باعتباره معاديا و مسيئا للملكية و الدين الموسوعة على الرغم من ...كل عيوبها كانت عملا ذا قيمة بالغة . ذلك أن هدفها لم يكن فقط توفير معلومات حقيقية للقراء ، و أن تكون بمثابة مرجع نافع ، و إنما كان توجيه الرأي العام . و هذا هو السبب الذي جعل نشرها يثير ذلك القدر من المعارضة. ذلك أنه كانت عدو لكل من الكنيسة و النظام السياسي القائم.

أولى الخطوات الموسعة لهذا المنظور نحو الظواهر الاجتماعية ستكون مع مونتسكيو –1689) (1755 عالم نسي الكثير فضله في التمهيد لدراسة العلمية لعلم الاجتماع كما عبر عن ذلك أميل دوركايم **ناسين تاريخنا فقد تعودنا على اعتبار علم الاجتماع غريبا عن أدأبنا و عن عقلنا الفرنسي. إن حقيقة كتابة فلاسفة كبار حول الموضوع حديثا في كل من إنجلترا وألمانيا جعلنا ننسى أن هذا العلم قد ولد أولا عندنا. و لكن لم يكن الفرنسي أوجيست كونت أول من قدم أساسه الخاص وميز أجزاءه الأساسية ، و أعطاه اسما خاصا يبدو بربريا : اسم السوسيولوجيا و لكن كل هذا الامتداد الذي يأخذنا معه اليوم نحو [دراسة] المشاكل الاجتماعية قد جاء من فلاسفة القرن XVIII . و في هذه الكوكبة من المؤلفين ، يجب أن يأخذ مونتسكيو من بين كل الآخرين على حدا: فهو من أقام في كتابه روح القوانين مبادئ العلم الجديد حقيـــــــقة.**

يعد مونتسكيو وفق إميل دوركايم أول فيسلسوف فرنسي دعا إلى دراسة مؤسسات و عدادات و تقاليد المجتمع دراسة علمية ، أي كأشياء اجتماعية، و هو يستغرب كيف تاه الدارسون لعمله عن هذه الحقيقة التي يخبرنا بها صاحب الكتاب منذ الصفحات الأولى له **هدف هذا الكتاب هو القوانين ، والعادات، و آداب كل شعوب الأرض . و في وسعنا القول أن الموضوع كبير ، كونه يمس كل المؤسسات المتلقاة من قبل الإنسان.**

لم يكن مونتسكيو راغبا في لعب دور المشرع الساعي لصياغة التشريعي المثالي للمجتمعات كما كان التقليد الفلسفي المعمول به ، ولا يصدر أحكام قيمية على مؤسسات الشعوب المختلفة كما كان يفعل بعض الفلاسفة الذين نظروا لها بنوع من التحقير خصوصا بعض فلاسفة عصر التنوير الذين كانوا يهاجمون كل ما له علاقة بالماضي و الدين على وجه الخصوص، بل الهدف الأساس هو البحث الموضوعي عن الأسباب الاجتماعية المولدة للشرائع.

ضمن هذا الاتجاه سيطرح مونتسكيو إمكانية الوصول إلى القوانين الطبيعية التي تنظم المجتمعات، يقول دوركايم في هذا الصدد ما يلي : **عندما أعلن مونتسكيو أن القوانين هي الروابط الضرورية التي تصدر عن طبيعة الأشياء فإنه كان يدرك إدراكا تاما أن هذا التعريف الرائع للقانون الطبيعي يطبق في المسائل الاجتماعية كما في المسائل الأخرى و أن موضوعه روح القوانين هو بالتحديد تبيان كيف أن النظم التشريعية تستمد أساسها من طبيعة الناس و من بيئاتهم.**

و لكن ألا يبدو طرح إمكانية الوصول إلى قوانين التي تصدر عنها التشريعات معاكس لفوضوية و عشوائية و حتى لا معقولية الحياة الاجتماعية التي تعكسها القوانين والشرائع المختلفة والمتضاربة، فبينما تشجع مجتمعات على تعدد الزوجات تدينها أخرى ، و بينما تقر أخرى العبودية، ترفضها وتدينها الأخرى كونها تمس بحرية الإنسان، وفي حين تشجع أخرى على التجارة و الربا نجد أن أخرى تحرمها ...الخ.

إن طرح فكرة قوانين طبيعية تحكم شرائع المجتمعات لها دلالة ابستمولوجية مهمة في فكر مونتسكيو ، كونها تكشف عن اعتقاده بإمكانية قيام علم للواقع الاجتماعي ، إن هذا الأخير قابل للفهم و التوضيح كما هي ظواهر الطبيعة قابلة للفهم و التوضيح ، هناك منطق ، عقلانية ما (قانون طبيعي) تسير الحياة الاجتماعية، والباحث يستطيع إظهارها للعلن، و كما يرى **Colas Duflo** أراد مونتسكيو أن يفعل مع الواقع الاجتماعي نفس ما فعله نويتن مع المادة في الفيزياء.

لنرى ما يقوله مونتسكيو في كتابه روح القوانين : **الناس هم أول من بحث عنهم فاعتقدت فيما لا حد له من تنوع القوانين و اختلافا الطبائع أنه لم يكونوا مسيرين بأهوائهم فقط و قد وضعت مبادئ[قوانين] و ابصرت خضوع الأحوال الخاصة لها كما لو كان ذلك من تلقاء نفسها ، و أن تواريخ جميع الأمم ليست غير نتائج ، و أن كل قانون خاص مرتبط في قانون آخر أو تابع لقانون آخر أعم منه.**

لعل السؤال الذي يطرح نفسه الآن كيف توصل مونتسكيو إلى هذه القوانين ؟ ما المنهج الذي اعتمد عليه لتحقيق ما رغب فيه كما رأينا ؟

رغم أن مونتسكيو لم يعالج مسألة المنهج إلا أنه أدرك بشكل عفوي ضرورة استناده على منهج علمي يمكنه من تحديد القوانين المتحكمة بشرائع كل مجتمع من المجتمعات ، هذا المنهج يستند وفق إميل دوركايم على الاستقراء التجريبي للوقائع التاريخية التي تثبت أو تنفي تصوره أو فكرته عن القانون الذي يقف وراء مؤسسة أو تشريع معين ، إذ يجمع المعطيات التاريخية المتعقلة بمسألة من المسائل و يقارن موقف المجتمعات منها بناء على العوامل الطبيعية والأخلاقية (كموضوع تعدد الزوجات مثلا) و يرى مدى تكرار الأنماط أو الوقائع التي تسمح له بالقول أن هناك قانونا هنا أو هناك.

يعكس الطابع الإمبريقي لنهج مونتسكيو رغبته في استبعاد كل ميتافيزيقا أو معرفة لاهوتية في فهم القوانين التي تحكم الاجتماع الإنساني ، صحيح هو يعتبر الدين أحد العوامل المؤثرة في طبيعة

التشريعات التي توجد في مجتمع من المجتمعات إلا أنه لا ينطلق من تصور الحكم عليها بأنها صحيحة أو منحرفة من وجهة نظر دينية كما يفعل رجال الدين أو اللاهوت ،و بهذا هو يفصل بين الديني والعلمي.

و لكن وبالرغم من المساحة التي احتلها الاستقراء التجريبي في عمل مونتسكيو فقد بقي المنطق الصوري مسيطر بشكل كبير على تفكير مونتسكيو ، ففي كثير من الأحيان نجده يتخلى عن صرامة المنهج الاستقرائي الذي نادى به فرانسيس بيكون، و ذلك لحساب الاستقراء التجريبي الأرسطي الساذج الذي يكتفي فقط ببعض النماذج التاريخية الإيجابية المتوافقة مع فكرته من دون أن يوسع مجال ملاحظاته المقارنة وصرامتها **بكلمة واحدة لم يفهم مونتسكيو بشكل كافي إلى أي حد تتجاوز – كما قل بيكون – دقة الأشياء دقة العقل البشري : و هذا ما يفسر تلك الثقة في العقل وفي الاستنباط الصوري.**

العيب الآخر الذي ميز منهج مونتسكيو إهماله لمفهوم التقدم كسبب من الأسباب أو كقانون من القوانين المفسرة لتشريع المجتمعات ، يوق دوركايم **إذا ما قارنا الشعوب مع بعضها البعض ، سيظهر لنا و للوهلة الأولى أن بعض الأشكال و الخصائص الملازمة لطبيعة لمجتمعات، تكون بالكاد بارزة عند بعض الشعوب ، في حين أنها أكثر من ذلك عند غيرها: البعض منها محدودة النطاق ومنتشرة في فضاءات واسعة و البعض منها واسعة النطاق و كثيرة العدد : البعض منها لا يعرف أي سلطة قائمة ، في حين أنه بالنسبة للأخرى ليس فقط أن إدارة الدولة قد أقيمت بل توسع تأثيرها إلى كل أجزاء التنظيم الاجتماعي و بين هذين النوعين يوجد مستويات وسيطة عديدة... أن المجتمعات تولد من بعضها البعض و أن الأكثر حداثة تتفوق على المجتمعات السابقة : هذا ما نطلق عليه تقدم النوع البشري.**

وهذا في الحقيقة ما لم ينتبه له مونتسكيو ، فهو يضع كل المجتمعات على نفس المستوى : هو يفضل الجمهورية على الملكية و على الاستبداد ... و لكنه لا يشك في أن هذه الأنواع المختلفة من المجتمعات تنحدر من نفس الجذر، و بموقفه هذا هو يسقط أحد الشروط المحركة للحياة الاجتماعية ، والتي هي على نوعين : البعض منها موجود في الظروف الحالية مثل طبيعة الأرض عدد الوحدات الاجتماعية (الديمغرافيا) ...الخ و بعضها في الماضي التاريخي، لدى كما يعتمد شكل الطفل على

والديه الذين ينحدر منهما كذلك المجتمع يعتمد على المجتمع الذي سبقه وبجهل مونتسكيو لهذا التتابع و قرابة المجتمعات أهمل كلية هذا النوع من الأسباب[1].

إن هكذا عيب سيتم تداركه من قبل سان سيمون رائد آخر من رواد علم الاجتماع ، و لكن قبل أن عرض كيف قام بذلك من المهم بمكان عرض كيف ساهم في نقل منهج علم الطبيعة نحو الظواهر الاجتماعية ، نحو الواقع الاجتماعي ، فسان سيمون حلقة فكرية مهمة من حلقات تطور الفكر الغربي نحو صياغة النموذج الوضعي لدراسة ظواهر المجتمع.

إضافة إلى مونتسكيو شكل سان سيمون (1760- 1825) تعبيرا قويا عن تاثيرات فلسفة عصر التنوير على العقل الأوروبي وفي نفس الوقت ناقدا قويا لبعض مواقفها وتصوراتها حول المجتمع، كما كان من بين المساهمين الأوائل في بروز علم الإنسان، هذا العالم الصغير الذي لم يكتشف بعد حسب نظره من الناحية العلمية الاجتماعية، و الذي يحتاج بموجب ذلك لعلم سيطلق عليه مسمى الفيزيولوجيا الاجتماعية.

يتكون حقل الفيزيولوجيا بصفة عامة من كل الوقائع التي تحدث لدى الكائن العضوي. إن الفيزيولوجيا تبحث في تأثير العوامل الخارجية على النظام العضوي : إنها تتقصى التعديلات التي تحددها هذه العوامل في ممارسة وظائفنا كما تجعلنا نعرف منها ما يؤثر على صحتنا، وعلى سلامتنا، إشباع حاجاتنا، و تلك التي لها الأثر الضروري لزيادة مدى وسائل عيشنا ، و مضاعفة قوى رد الفعل التي تمكننا من مقاومة القوى الضارة التي تحيط بنا، وفي الأخير إرضاء وبأكمل وجه حجاتنا الأولى و إعطائنا جرعة كبيرة من السعادة و المتعة.

ليست الفيزيولوجيا مجرد هذا العلم الذي باختراقه أنسجتنا بفضل علم التشريح و الكيمياء سيكشف البنية الداخلية التي تجعلنا نعرف بشكل أفضل وظائفنا، وهي ليست مجرد هذا العلم الخاص لأحد أعضائنا مجربا على كل واحد منها كي يحد بشكل أفضل مجال نشاطها و الدور الذي تلعبه في الحياة منظرا لها في كليتها. إنها لا تكمن فقط في هذه المعرفة المقارنة التي تستشف من الفحص المفصل للنباتات و الحيوانات المفاهيم الثمينة حول الوظائف التي نتشارك بها مع أصناف أخرى من الكائنات العضوية.

[1] Émile Durkheim, Montesquieu et Rousseau précurseurs de la sociologie. (1966)page :74-73

غنية بكل الوقائع التي اكتشفت عبر أعمال ثمينة التي أجريت في كل الاتجاهات تنكب الفيزيولوجيا الاجتماعية على أبحاث من صنف أكثر علوا ، إنها تصعد فوق الأفراد الذين ليسو سوى أعضاء الجسم الاجتماعي الذي ينبغي أن تدرس وظائفه العضوية، كما تدرس الفزيولوجيا الخاصة تلك الخاصة بالأفراد.

و لهذا المجتمع ليس مجرد تجمع من الأفراد ، الموجهين فقط بإراداتهم الحرة التي تجعل منه مجرد نتاج لأحداث عرضية، هو عبارة عن آلة منظمة حقيقية أشبه بالساعة يساهم كل جزء منها وبطريقة مختلفة في سير المجموع إن اجتماع الناس يشكل كائنا حقيقيا قد يكون وجوده قويا أو مختلا وفق ما إذا كانت أعضاءه تقوم بشكل دائم بالوظائف التي كلفت بها أولا .

وإذا اعتبرناه ككائن حي، و ندرس المجتمع أو الجسم الاجتماعي في لحظة ميلاده وفي الحقب المختلفة لنموه سنلحظ أن هذا الجسم سيظهر نمط خاص بالنسبة لكل حقبة منها، و ذلك بنفس الطريقة التي نرى فيها أن فيزيولوجيا الطفل ليست هي فيزيولجيا الرجل البالغ ، وفيزيولوجيا الرجل المسن ليست هي فيزيولوجيا الأزمنة الأولى من الحياة.

وفق هذا المنطلق تاريخ الحضارة ليس سوى تاريخ النوع البشري ، بمعنى فيزيولوجية أعماره المختلفة، كما فيزيولوجيا مؤسساته ليست سوى عرض المعارف الصحية التي استخدمت فيها من أجل الحفاظ على وتحسين الصحة العامة للمجتمع. إن الاقتصاد السياسي ، كما التشريع ، الأخلاق العامة ، و كل ما يشكل إدارة و تنظيم المصالح العامة للمجتمع ليست سوى مجموعة من القواعد الصحية التي ينبغي أن تتنوع طبيعتها بحسب الحضارة ، و الفيزيولوجيا العامة هي العلم الذي يمتلك أكثر عدد من المعطيات التجريبية لمعاينة هذا الوضع و وصفه لأنها ليست بالنسبة لكل مجتمع سوى التعبير عن قوانين وجوده.

و بهذا علم الفيزيولويجا ليس فقط للحياة الفردية و لكن الحياة بصفة عامة، والتي لا تشكل حياة الفرد إلا دواليبها و الآمر مشابه لما يحدث في الآلة التي يعتمد إنتاجها على ما تحظى به من الصيانة و الحفظ فإذا كانت طريقة عمل عناصرها منسجمة و متناسقة و منظمة كان ما تنتج طبيعيا و خال من الشوائب و العكس صحيح و مرادف للفوضى و الاختلال و بهذا ما يسري على الآلة يسري على المجتمع الذي تسرب له الفوضى عندما تصبح أحد عناصره أعضائه لا يستجيب بشكل متناسق مع غير من الأعضاء الأخرى كما هو حال المؤسسة الدينية ، لقد كان للدين المسيحي دور في الحفاظ على

لحمة المجتمعات الأوروبية التقليدية و لكن ضعف المؤسسة الدينية الكاثوليكية و عدم وجود بديل لدورها في آلة المجتمع خلق حال من الفوضى و تضارب الأفكار و الأيديولوجيات و ما يتبعها من صراع .

يلخص موقف سان سمون أحد الركائز الأساسية لنموذج الوضعي **إن التفكير الديني ساد في المجتمعات ما قبل العلمية ، أما و قد بلغ المجتمع مرحلة الوضعية فلا مبرر لاحتفاظ بالتجريدات و البراهين الميتافيزيقية.** ولقد عبر سان سيمون عن هذه الفكرة بوضوح تام عبر قول ما يلي : **إن القدرة العلمية الوضعية هي نفس ما يجب أن يحل محل السلطة الروحية ، ففي العصر الذي كانت فيه كل معارفنا الشخصية حدسية و ميتافيزيقية بصفة أساسية كان من الطبيعي أن تكون إدارة المجتمع فيما يخص شؤونه الروحية في يد السلطة اللاهوتية ما دام اللاهوتيون آنذاك هم الميتافيزيقيين الموسوعيين الوحيدين. و بالمقابل عندما تصبح كل أجزاء معارفنا قائمة على أساس الملاحظة فإن إدارة الشؤون الروحية يجب أن تستند إلى القدرة العلمية باعتبارها طبعا متفوقة على اللاهويتي و الميتافيزيقية(31).**

وفق تصور سان سيمون يعد **التحول من التفكير اللاهوتي إل التفكير العلمي الوضعي حسب سان سيمون ... أمر واقعي يتفق مع السير العام لتقدم العقل الإنساني.**

ستصبح رغبة سان سيمون في تأسيس علم الإنسان على غرار علم الطبيعة مع أوجيست كونت(1798-1857) تلميذه النجيب سوسيولوجيا و الغير معترف بالجميل في نظر البعض، لقد آمن هذا الأخير بوجود علم واحد لكل الظواهر سواء ظواهر علوم مثل الفيزاء أو الكمياء ....الخ أو ظواهر اجتماعية.

لقد رأى اوجيست كونتو في الفترة التي عاش فيها أن نسق العلم سار بطريقة استوعب فيها الظواهر الكونية جميعها ماعدا الإنسان و لهذا السبب بدا ... **له العلم بالمجتمع ضروريا لكي يكتمل النسق العلمي.كان تلميذا للواحديين الماديين و التنويريين (كوندرسيه وسان سيمون)، فبدأ من قضيتهم القائلة إن الإنسان ليس فريدا ولا يحتاج إلى معالجة فريدة، بل هو قاطن في مملكتي الحيوان والنبات، يخضع مثلها لقوانين عامة، حين نكشفها سوف تقودنا إلى الهناء والتجانس.ومن أجل كشفها دعا كونت إلى إنشاء الفيزياء الاجتماعية التي تدرس المجتمع بمنهج العلم الحديث ، فتقتصر على تفسير الظواهر بفضل ما بينها من علاقات ثابتة لتماثلها وتعاقبها ،**

إنها الطريقة الوضعية لا اللاهوتية و لا الميتافيزيقية ، طريقة العصر الحديث الوضعي. إن الفيزياء الاجتماعية تدرس الظواهر الاجتماعية، تماما كما تدرس العلوم الأخرى الظواهر الفلكية أو الفيزيائية أو الكيميائية أو البيولوجية.و قسم كونت الفيزياء الاجتماعية إلى قسمين هما:الديناميكا الاجتماعية التي تدرس المجتمعات في حركيتها وتقدمها، والإستاتيكا الاجتماعية التي تدرس المجتمعات في حالة ثباتها واستقرارها خلال مرحلة معينة من تاريخها.و لنلاحظ أننا إزاء حدود الميكانيكا و الفيزياء الرياضية، وكونت بطبيعة الحال يقر أن الرياضيات على رأس نسق العلم و أنها النموذج الأمثل الذي ينبغي أن تحتديه كل دراسة لكي تصير علما.لكن كونت إعترف فيما بعد بأن الظواهر الاجتماعية أكثر تعقيدا ، لذلك فإن تطبيق المنهج الرياضي في دراستها سيكون محدودا –في الوقت الراهن على الأقل– و قد يعطي فقط مظهرا أو وهما علميا و لن يصل بالإجماع إلى قوانين دقيقة و حتمية . لذلك نبذ كونت مصطلح « فيزياء إجتماعية » و استقر على مصطلح علم الاجتماع(سوسيولوجيا Sociologie).

البطاقة الثالثة مقارنة مختصرة بين طبيعة علم العمران و علم الاجتماع الغربي:

إلى غاية القرن التاسع عشر وصل العقل الأوربي إلى صياغة نموذج وضعي لدراسة الظواهر الاجتماعية من خلال الملاحظة الواقعية للقوانين التي تحكمها، بمعزل عن كل ميتافيزيقا غيبية ، شيء لم يكن ليتحقق من دون التحولات التي عرفها منذ عصر النهضة بتفائله و إيمانه بقدرات عقل الانسان و قيمته ، و التي لم يكن من الممكن الوصول لها كذلك من دون الثورة العلمية التي حدثت في علم الفيزياء و انتصار النموذج الإبستمولجي النيوتوني للمعرفة العلمية، و ما أتبعه من تغير في نظر الكون و الطبيعة والمادة التي يتفرغ من محتواها الميتافيزيقي.

و لهذا يجب الانتباه إلى هته الحقيقة ، فمن اللحظة التي توقف فيها مشروع عبد الرحمان ابن خلدون في القرن الرابع عشر عرف العلم تطورا و تحولا خطيرا ضمن السياق الثقافي الغربي ، إذ لم يعد يعطي للعالم الإلهي أي دور في تفسير الظواهر الطبيعية ، و لم يعد مهتما بالبحث في مسائل ميتافيزيقية أو منشغلا بتفسير الواقع انطلاقا منها.

على هذا الأساس نشأ علم الاجتماع الغربي باعتباره علما علمانيا وأحيانا علما ملحدا ، لذلك شتان بين ما يطرحه ابن خلدون حول قدرة البشر على الانتقال من العالم الطبيعي إلى العالم الموافق

طبيعي عبر الحلم و النبوة، و بين القطيعة التي أحدثها هيوم في هذا الشأن مع الفكر المسيحي للقرون الوسطى، والعمل الذي قام به مونستيكو وسان سيمون وأجيست كون في مجال افراغ الظواهر الاجتماعية من كل ميتافيزيقا و إمكانية دراستها و تفسيرها بموجبها.

إن هذه الوضعية تقودنا للحديث عن كيفية نظر علم الاجتماع الغربي للمجتمع ، هذا الأخير لم يعد نتاجا لتدخل الهي بل هو نتاج ما يقوم به في حد ذاته ، المجتمع هو ما يقوم به من أفعال في السياسة و الاقتصاد و التربية ....الخ لا دخل لأي إرادة إلهية فيها.

فمثلا إذا تدهور الوضع الاقتصادي لا نفسر ذلك بلعنة إلهية ، بل بخلل في المؤسسة الاقتصادية ، في طريقة عمل عناصر النظام الاقتصادي، و هكذا مع مجالات الحياة الاجتماعية الأخرى ،و بهذا يبدو المجتمع نتاجا لنفسه أي للقوانين الطبيعية التي تحكمه ، كما القوانين التي تحكم المادة التي تفكك بسرعة بحكم ضعف الروابط التي تجمع بين عناصرها ن أو الأجسام التي تصادم مع بعضها بحكم قوانين حركتها و اتجاهها وفقط.

الآن إذا كنا نعرف بأن المجتمع هو نتائج نفسه ، أو بصيغة أخرى نتاج هذه الآلة الكبيرة من الممكن أن نضع سياسات تتناسب مع قوانينه ، ومن ثم هناك إمكانية تحكم المجتمع في مصيره ، بهذا الإنسان هو من يضع قوانينه كما ذهب إل ذلك مونتسكيو ، وهذه نظرة علمانية قد يكون اين خلدون سايرها إلى حد ما في شؤون الحكم الذي لم يفصله تماما عن الدين.

في الأخير بينما يحصن علم العمران الخلدوني الظواهر الدينية من أي بحث سوسيولوجي، لا يعترف علم الاجتماع الغربي بآي ميزة لهذا ظواهر ، هي كغيرها من الظواهر الطبيعية يمكن دراسته دراسة علمية ، و العقل غير عاجز عن اكتشاف قوانينها و تفسيرها تفسيرا اجتماعيا.

أحد الميزات الرئيسية لعلم الاجتماع الغربي تكونه في إطار صراع مرير مع الفكر اللاهوتي و الديني، و هو كعلم يعبر عن الصراع العقل الأوروبي لعلمي و التنويري مع الفكر اللاهوتي المسيحي ، لهذا لسبب هو يحمل هته النزعة النقدية نحو الدين و العدائية في بعض الأحيان، بسبب الاستبداد الذي مورس باسمه ضد كل عقل مفكر و باحث.

هذا هو علم الاجتماع الغربي الذي سيعود مرة أخرى إلى العالم العربي محملا بأفكار أخرى مختلفة و راديكالية في بعض جوانبها مع علم العمران البشري الذي أسسه عبد الرحمان ابن خلدون، رغم مواطن التشابه التي تبدو بينهما كذلك ، و هذا هو علم الاجتماع الذي سيتواجه و يتفاعل معه العقل

العربي في القرن العشرين ، ولنا أن نتصور حجم الصدمة و ما ينجر عنها من تاثيرات و انعكاسات بين هذا العقل الذي لا يزال يعيش في ثقافة القرون الوسطى بكل الدور الذي تلعبه التقاليد و الميتافيزيقا في تشكيل تصوره للعالم و الانسان و المجتمع و بين الجهاز الإبستيمي (المنطلقات و المفاهيم، و المنهج) الذي كونه العقل الأوربي لفهم العالم و الإنسان و المجتمع.